المسافة عند النحاة دراسة تطبيقية على مذاهب كلام العرب

الدكتـــــور
محمد حسن العمري
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الملك خالد

١٤٣١هـ

الحمد لله عظيم المقام ،خلق الزمان والمكان ، وهو عزيز لا يحويه المكان ، وعظيم لا يملكه زمان، لا تحله الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ،بل لا يزال ـ سبحانه ـ في نعوت جلاله منزها عن الزوال ،وفي صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ،إنه الله ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له السلطان والقهر والخلق والأمر فتبارك الله ذو الجلال والجمال والكمال ،ثم الصلاة والسلام على من شرُف لسان العرب بفصيح لسانه،وفصل قوله وخطابه ،وبليغ حرفه وبيانه،محمد بن عبد الله الرؤوف الرحيم وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين وبعد :

فقد جذب انتباهي ما يكرره علماء النحو من تعليق بعض الأحكام على طول الكلام أو قرب الألفاظ وبعدها عن عواملها النحوية أو مستلزماتها وضمائمها اللفظية ، ولا شك أن ذلك أمر مرده إلى الزمان والمكان وهو ما أطلقت عليه اسم" المسافة" وقررت أن أتتبع هذا المصطلح وما يرادفه عند النحاة والمفسرين ، ومن أول وهلة ظهر لي أهمية هذا الموضوع وفي الوقت نفسه أدركت أني أشبه بمن تدلى في بحر لجي يسعى خلف ضالته تلوح له تارة وتغمرها الظلمات والأمواج تارة ، فالزمان والمكان خلق عجيب لله وسر من أسراره وعجائب قدرته في ملكوت الكون ، لا غنى لمخلوق في عالم الأولى عنهما وهما إلى الله تعالى مفتقران، وبسر قدرته وبعظيم لطفه مدثران، وليس لهما إلى ذاته تبارك وتعالى تلبس أو تأثير ، ولا إلى أفعاله، فقربه تعالى لا يماثل قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذوات الأجسام.

ولشيء مما ألمحت إليه آنفا كان اختلاف العلماء في تقرير الزمن وكنهه أو ماهيته، وتباينت مذاهبهم في تصوير كينونته ومحاولة إخضاعه أو تقريبه للأفهام .

لذلك رأيت أن أفتتح بتوطئة تضم ما ند عن أصل الفكرة ، فسقت بعض مقولات أهل الكلام والمناطقة حول هذا المعنى ، وألمحت إلى بعض النظريات العلمية الحديثة، كما أشرت إلى قيام أو تعليق شيء من أحكام الشريعة فرائضها على الزمان والمكان ثم توظيف المسافة عند النحاة العرب وسلفهم في هذا علماء الفقه الإسلامي .

بيد أني لم أتعرض لتفاصيل وتقسيم الزمن الدائري والأبدي ، الذي خاضت فيه بعض الفرق ودفع بعضها كالمعتزلة إلى القول بخلق القرآن والخوض في مغيبات لا يدركها غير الخالق سبحانه.

وقد حاولت بعد جمع مادة هذا البحث العلمية أن أقدم نماذج منها على إثبات تفاوت مذاهب النحاة في اعتماد مبدأ القول بالمسافة في توجيه الأحكام النحوية، وقبول معاني ما تباعدت به المسافات أو رده، احتجاجا بطول الكلام ومطله ، كما كان عندهم أيضا اقتراب الألفاظ بعضها من بعض مرجحا لأمر على آخر.

الباحث أبها ٢٤/ ٣/ ١٤٣١هـ

توطئة :

المسافة في اللغة: من سفت الشيء ،أسوفه سوفا،إذا شممته ، والاستياف :الاشتمام ،كان الدليل في الفلاة يأخذ من التراب فيشمه ، ليعلم أعلى قصد هو أم على جور. قال رؤبة:(١)

إذا الدليل استاف أخلاق الطرق(٢)

والمسافة في الاصطلاح: البعد، بعد المفازة والطريق، وأصله من الشم، وذلك انه كثر استعمالهم لكلمة استاف حتى سمي البعد مسافة.

وقيل: سمي مسافة لان الدليل- كما ذكرنا- يستدل على الطريق في الفلاة البعيدة الطرفين بسوفه ترابها؛ ليعلم على هدى أم على جور (٣).

قال الفيومي :" سَافَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ يَسُوفُهُ سَوْفًا مِنْ بَاب قَالَ ، اشْتَمَّهُ وَيُقَالُ : إنَّ الْمَسَافَةَ مِنْ هَذَا ، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّلِيلَ يَسُوفُ تُرَابَ الْمَوْضِعِ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَافَ رَائِحَةَ الْأَبْوَالِ وَالْأَبْعَارِ عَلِمَ أَنَّهُ عَلَى جَادَّةِ الطَّرِيقِ" (٤) وساق بيت رؤبة السابق (٥).

---

(١) ابن العجاج مات سنة ١٤٥ هـ

(٢) ديوانه ١٠٤ .

(٣) الصحاح (سوك) ٣٤٠١١ ، اللسان (ساف) ١٦٤١٩.

(٤) المصباح المنير ٤/ ٣٨١.

(٥) انظر مقاييس اللغة (سوف) ٣/ ٨٩ ،تهذيب اللغة (سفا) ٤/ ٣٢٩ ، المخصص ١/ ١١٧.

وقولهم: " بيننا وبينهم مَسَافة " أصله من السَّوْف، وهو الشَّمُّ "[1]

ومن خلال إجالة النظر في كتب أهل العلم من اللغويين والفلاسفة والمتكلمين والبلاغيين يظهر أن "المسافة" مرادفة للبعد، وهما يطلقان ويراد بهما الزمان والمكان، وقد يراد بهما أمرا معنويا غير ذلك، كما ستراه واضحا من خلال الأمثلة فيما بعد.

وهذا البحث جاء نتيجة لما لاحظته في كتب النحاة من تعبيراتهم عن قضية ما بقولهم: لطول الكلام،لقربه، لبعده، لطول الفصل.

وهذه الألفاظ عندهم تدل دلالة واضحة على اعتماد المسافة عنصرا إيجابيا في تعليل المعاني والأحكام النحوية قبولا واستحسانا أو ردا.

وقبل أن أباشر الحديث عن هذا الشأن عند النحاة رأيت أن أبين بيان تذكير أن للنحاة سلفا في تحكيم المسافة والاهتمام بالتدقيق في شانها، وهم الفقهاء رحمهم الله فبعض من أحكام الدين الإسلامي وتشريعاته ربطت ربطا وثيقا بالمسافة الزمانية أو المكانية أو بهما معا، فمن مسائلها الظاهرة أمر قصر الصلاة والفطر في نهار رمضان، فمن يسر الإسلام أباح قصر الصلاة الرباعية وجوز الأكل والشرب في نهار رمضان ونحوهما مما يحرم على الصائم وذلك للمسافر ولعموم أهل الأعذار، وقد اختلفت أقوال الفقهاء وتباينت آراءهم في تحديد المسافة التي تبيح ذلك.

---

(١) أدب الكاتب ١/ ١٣ .

فذهب الأئمة مالك وأحمد وإسحاق والشافعي أن السفر المبيح للقصر مقدر بستة عشر فرسخا ولا يحسب منه مسافرة الإياب ، كل فرسخ ثلاثة أميال، كل ميل اثنا عشر ألف قدم وهي أربعة آلاف خطوة.

وذهب أبو حنيفة وسفيان الثوري أن رخص السفر لا تحصل إلا في ثلاث مراحل أربعة وعشرين فرسخا، وقيل: غير ذلك [1].وقدر مسافة الرخص بعض كبار علماء عصرنا بخمسة وثمانين كيلا .

واهتمام الفقهاء بالمسافة مبني على التشريع الإلهي في تقنين بعض العبادات بأزمنة معينة، وأمكنة معلومة، وتشريف بعض الأماكن وكذلك بعض الأزمنة، فلو تأملت الصلاة رأيت أن ارتباطها الوثيق بالزمان قال الله جل وعلا:" إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا" [2].

إذا خرج زمان الفريضة دون عذر لصاحبها لم تقبل منه ، وكان آثما ، ومثلها فريضة الصوم وعبادة الحج ، وتزيد عليهما الأخيرة بارتباطها بالمكان، وكذلك مواقيتها يلملم وذو الحليفة والجحفة وذات عرق، ثم شرف البيت الحرام والمسجد النبوي والأقصى وقباء ، وهكذا مما يطول حصره.

ولعلاقة المسافة بالقرب ، والبعد ، والبين ، والغاية ، والمكان ، والزمان، فالأشبه أن أتحدث عن هذه المصطلحات ليكون هذا مع ما قبله مدخلا إلى الحديث عن أثر المسافة في تقدير النحاة.

أما القُربُ، بالضم، فهو الدنو. تقول قرب الشيءُ، دنا فهو قريب.

---

(١)انظر المزيد في المغني لابن قدامة ٢٥٦\٢ وما بعدها.

(٢) النساء ١٠٣ .

فالقريب ضد البعيد، وفيه يستوي المذكر والمؤنث والمفرد والجمع تقول: هو قريب مني، وهي قريب، وهم قريب، وهن قريب، قال الفراء:" إذا كان القريب في معنى المسافة، يذكر ويؤنث وإذا كان في معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم.

ويستعمل القرب في(المكان والزمان) وفي معان أخرى هي النسبة والقدرة والحُظوة، والرعاية...." (١).

وقد يكون القرب لغير زمان أو مكان، كقرب الله عز وجل من العبد وقرب العبد من ربه ومنه الحديث القدسي:" من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا"(٢) وأيضا: " ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" (٣).

فقرب الله من العبد قرب الإفضال عليه، والفيض عليه من نعمه وألطافه ومواهبه، وإحسانه إليه، وترادف مننه عنده، وقرب العبد من ربه روحاني بالطاعة ودوام التفكير في آياته والذكر والعمل الصالح ونحو ذلك، وليس قرب الذات والمكان؛ لأن ذلك من صفات الأجسام والله يتقدس عن ذلك، وانظر المزيد من الأحاديث التي تدل على معنى القرب بما ذكرناه. (٤)

---

(١)انظر بصائر ذوي التمييز ١١\١٢٥٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٣/ ١٩٢ وابن ماجة في السنن ١١/ ٢٦٩.

(٣) رواه البيهقي في (الأسماء والصفات) ص ١٢١ .وقال الشيخ الألباني : ضعيف جدا . سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤/ ٢٥٦.

(٤)النهاية في غريب الأثر ٤\٥٤.

وقد جاءت كلمة القرب مضافة إلى الزمان في حديث شريف تباينت أقوال أهل العلم في تفسير المراد بها وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا تقارب الزمان ـ وفي رواية: اقترب الزمان ـ لم تكد رؤيا المؤمن تكذب "(١)

فقيل فيه:

يراد به اقتراب الساعة.

أو تقارب أهل الزمان بعضهم من بعض في الشر والفتنة،وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغلبة الفسق وظهور أهله.

أو قصر أعمار أهله وقلة البركة فيها.

أو قرب مدة الليالي والأيام حتى تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة والساعة كاحتراق السعفة.

أو تسارع الدول إلى الانقضاء والقرون إلى الانقراض.

أو تقارب زمان الليل والنهار واستوائهما أيام الربيع.

أو انتهاء مدته إذا دنا قيام الساعة .

ونضيف إلى ما قالوه أيضا:

ما عليه الحال اليوم في زماننا هذا من تقارب المسافة بين مشارق الأرض ومغاربها بما وفرته وسائل الاتصال الحديثة حتى اقترب البعيد في الزمان والمكان، فالمواصلات بالسيارات والطائرات والبواخر ووسائل الاتصال السلكي وغيرها، من الهواتف والناسوخ وما يسمى بالشبكة العنكبوتية، والقنوات الفضائية

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٩١ ،وابن ماجة في السنن ١١/ ٣٩٩ .

وغيرها مما حصل به تقارب عجيب في الزمان والمكان، وقد أشار إلى شيء من هذا التقارب الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال:" تؤكل فاكهة الشام بالمدينة".

هناك صور من التقارب الزماني والمكاني هي أشد عجبا مما سبق بيانه على نحو ما جاء في حديث الإسراء والمعراج وما جاء من قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس وتحضير عرشها ، ورفع بيت المقدس لمحمد عليه الصلاة والسلام ينظر اليه ليصفه لقريش ، وقول عمر رضي الله عنه يا "سارية الجبل" وريح يوسف عندما فصلت العير، ورزق مريم" كلما دخل عليها المحراب"، ومائدة عيسى وقومه، ونحو ذلك مما لم يشر إليه أحد فيما أعلم.

وأعجب من ذلك تقارب ما بين السماوات والأرض في رحلة الوحي الإلهي "والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير"(١) .

وأما البعد فقال الفيروزبادي(٢): " هو ضد القرب، ومالهما حد محدود، وإنما هو أمر اعتباري ويستعمل في المحسوس وفي المعقول ولكن استعماله في المحسوس أكثر ومثاله في المعقول قوله تعالى:"قد ضلوا ضلالا بعيدا".(٣)

والبعد يطلق على البعد المكاني والبعد الزماني ـ مثل المسافةـ وعلى القرب،وعليه حمل تفسيره في قوله تعالى:"وما قوم لوط منكم ببعيد" (٤)، "ففيه وجهان: الأول أن المراد نفي البعد في المكان ؛ لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة

---

(١) المجادلة ١ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ١/ ٥٢٥ .

(٣) النساء ١٦٧ .

(٤) هود ٨٩ . .

من مدين. والثاني أن المراد نفي البعد في الزمان ؛ لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام[١].

والبين: ليس المراد به (الفراق) الذي طالما أبدى الشعراء منه شكواهم، قال الشريف الرضي:

وكم غادر البين المفرق من فتى يمسح قلبا دائم الخفقان

ومنتزع من بين جنبيه زفرة تخلى دموع العين في الهملان

وما لحب إلا فرقة بعد ألفة وإلا حذار بعد طول أمان[٢]

وقال ابن حمديس:

فيا رب إن البين أضحت صروفه علي ومالي من معين فكن معي

على قرب عذالي وبعد حبائبي وأمواه أجفاني ونيران أضلعي[٣]

وقال آخر :

تقول غداة البين عند وداعها : . . . إلى الكبد الحرّى : فسر ، ولك الصبر

وقد سبقتها عبرةٌ : فدموعها . . . على خدّها بيضٌ، وفي نحرها حمرُ[٤]

أي الدموع إذا انحدرت إلى نحرها احمرت من الطِّيب .

---

(١)مفاتيح الغيب١٨\٣٩

(٢)دواوين الشعر العربي٢\٢٧.

(٣)ديوانه ١\١١\٤، صبح الأعشى ١\٣٢٢.

(٤) ديوان المعاني ١/ ١٠٧ .

وإنما المراد به (البينية أو البون) أي المسافة الزمانية أو المكانية بين شيئين ، قال الصاحب بن عباد : "والبُوْنُ: البُعْدُ؛ مِثْلُ البَوْنِ، بَيْنَهم بُوْنٌ وبَوْنٌ وبَيْنٌ: أي بُعْدٌ[١] ".

وقد يطلق ويراد به المباينة بمعنى الاختلاف قال في المشارق : " والبون البعد، والبون مسافة ما بين الشيئين ، والبون الاختلاف بين الشيئين[٢] ".

والغاية :هي جزء من المسافة أي بعضها، وقد تطلق على المسافة "المراد بالغاية في قولهم: من لابتداء الغاية وإلى لانتهاء الغاية هو المسافة إطلاقا لاسم الجزء على الكل "[٣]

والمكان:" عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء، وعن بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي، وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطا بالمحوي فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين".[٤]

قال في التعريفات[٥] :" المكان عند الحكماء السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي، وعند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده.

---

(١) المحيط في اللغة (واي) ٢/ ٤٧٤

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١/ ١٠٤ .

(٣)التقرير والتحبير ٩٠١٣.

(٤)مفردات غريب القرآن للأصفهاني١١٤٧١.

(٥) ١١٢٩٢.

والمكان المبهم عبارة عن مكان له اسم نسميه به بسبب أمر غير داخل في مسماه كالخلف فإن تسمية ذلك المكان بالخلف إنما هو بسبب كون الخلف في جهة وهو غير داخل في مسماه.

والمكان المعين عبارة عن مكان له اسم سمي به بسبب أمر داخل في مسماه، كالدار فإن تسميته بها بسبب الحائط والسقف وغيرهما وكلها داخلة مسماه.

والزمن: من الزمان، وهي الأزمنة ، والأزمان، وأزمن الشيءُ: طال عليه الزمان[1].

ولمصطلح الزمن إشكالية معقدة اكتفى علماء العربية قديما بالحديث عن طرف منه كالتقسيم ونحوه، دون الخوض في ماهيته أو هولاميته، وعذرهم أنهم لا يحتاجون إلى شيء من ذلك في تقعيدهم ونحوهم.

وقد يكون مصطلح الزمن متعذرا على التعريف فالزمن أمر نحس به أو نقيسه أو نقوم بتخمينه، وهو يختلف باختلاف وجهة النظر التي ننظر بها بحيث يمكننا الحديث عن زمن نفسي[2] أو زمن فيزيائي[3] أو زمن تخيلي[4] ، لكن يمكننا

---

(١) المحيط في اللغة(زدر)٢\٣٠٢.

(٢) الوقت لا يمر عندما نكون قلقين إلا ثقيلا له طول في النفس، ويمر بسرعة هائلة في ساعات الفرح والسرور والنعيم، وهذا المعنى يعرفه الناس بالمراس والإحساس، ونقرأه في مصادر الأدب ،يقول امرئ القيس :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الحبل شدت بيذبل

(٣) الزمن الفيزيائي. يعتقد العلماء أن الزمن أو الوقت كمية أساسية يمكن قياسها. ومن الكميات الأساسية الأخرى، الطول والكتلة. وقد أدرك الفيزيائي الشهير ألبرت أينشتاين تأثر قياس هذه الكميات بالحركة النسبية ـ الحركة بين جسمين ـ وأصبح الزمن أو الوقت شائعًا على أنه البعد الرابع . الموسوعة ١/ ٧ .

(٤) العالم حادث ، ودليل الحدوث يتطلب افتراض "زمن ميتافيزيقي "غيبي، يتم الحدوث فيه،ولكن لا دليل على وجوده، ولا طريق لمعرفته .

حصر الزمن مبدئيا بالإحساس الجماعي للناس كافة على توالي الأحداث بشكل لا رجوع فيه، هذا التوالي الذي يتجلى أكثر ما يتجلي بتوالي الليل والنهار، وتعاقب الأيام فرض على الناس تخيل الزمن بشكل نهر جار باتجاه محدد لا عودة فيه .

ويمكن القول : إن الزمن عبارة عن الوقت من حدوث المادة أو الفعل فصاعدا بدرجة نسبية تتفاوت حسب مدة تعمير الأشياء على حد قول الله تبارك وتعالى: " أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير"(١) .

فكل إنسان له مدة زمانية يتفرد بها عن سواه، ونلاحظ أن علماء اللغة قد أبحروا كثيرا للبحث عن دقائق علوم اللغة و الكشف عن أسرارها وخفاياها إلا أن مسألة الزمن النسبي وعلاقة الفعل به لم تحظ باهتمام الأوائل من علماء العربية فيما انتهى بي البحث إليه، لذلك رأيت أن أشير إلى شيء من البحث الحديث في هذه المسألة وأنبه إلى"أن للفعل علاقة عضوية بمفهوم الزمان، فما من فعل إلا لحدوثه وقت، والوقت قسط من الزمان.

ومعلوم أن الزمن هو الليل والنهار، فبالليل والنهار يتكون الأسبوع والشهر والسنة، وكله بهذا، والليل والنهار ظرف للحوادث .

والزمان مفهوم معقد لم يتمكن العلماء من الوصول حقيقته بعد، وهو ناشئ من دوران الكرة الأرضية حول محورها، وعلى مدار معين مرتبطة فيهما بالشمس، يعني أن الأرض تجري في ذات الوقت حول الشمس على مدار معين، إضافة إلى جريانها حول محورها، فيتمخض عن الأول المواسم الأربعة وعن الثاني الليل والنهار.

---

(١) فاطر ٣٧

جاء في الموسوعة العربية :" الوقت أو الزمن أحد أعمق ألغاز العالم. ولايستطيع أحد تحديد ماهيته بالضبط، ولكن إمكان قياس الوقت يجعل طريقنا في الحياة ممكناً. تتطلب معظم النشاطات الإنسانية مجموعات من الناس تعمل معا في المكان نفسه وفي الوقت نفسه، ولايستطيع الناس فعل ذلك إذا لم يقوموا جميعاً بقياس الوقت بالطريقة نفسها.

هناك طريقة للتفكير بخصوص الزمن هي تخيل عالم دون زمن. عندها سيكون العالم اللازمني في توقف تام. ولكن إذا حدث نوع من التغير فإن ذلك العالم اللازمني سيكون مختلفاً الآن عما كان سابقاً. والفترة ـ مهما كانت وجيزة ـ بين الماضي والحاضر فهي تشير إلى أن الوقت يجب أن يكون قد مضى "(١).

والزمان بالنسبة للفعل جدير بالاهتمام ذلك أن للفعل مراتب زمنية مختلفة، ولهذا فإن علاقة الفعل بالزمن أشمل بكثير من القدر الذي حصرها علماء العربية في صيغ ثلاث، وربما لم يكن غرضهم الوقوف على مفهوم الزمان مباشرة وإنما أرادوا أن يتوصلوا إلى تعريف للفعل يميزه عن الاسم والحرف، فاقتصروا في هذه المحاولة إلى تقسيمه إلى الماضي والحال والاستقبال فحسب"(٢).

وإن كان التعبير والبحث عن علاقة الفعل بالزمان أمرا مهما ومصدرا لمعرفة قرب الحدث أو بعده في كلام المتحدث، وقد أشار علماء اللغة إلى شي من ذلك(٣).

---

(١) الموسوعة ١/ ١.

(٢) الأزمنة في اللغة العربية ص٢ وما بعدها.

(٣) انظر الخزانة ٤٧٠\١٢، والأزمنة في اللغة ص٢٠\١١٧.

إن كان ذلك فإن المتكلمين من العرب القدماء وبعض العلماء المحدثين من الغرب قد تجاوزوا حدود ما عني به علماء العربية إلى البحث في مفهوم الزمن ومحاولة الكشف عن حقيقته، وهل الزمن وحدة؟ أو كم متصل غير ثابت؟ أو منفصل ثابت؟ ومن خلال الخوض في ذلك قصرت أفهام بعضهم فأنكروا وجود شيء اسمه الزمن، (١) وبعضهم جعله بعدا رابعا للمكان لا شيئا مستقلا بذاته ولكن ما يمكن أن تكون اتفقت عليه رؤية المثبتين له هو أن الزمان موجود وهو أمر نسبي، ولا سيما بعد الاكتشاف العلمي الحديث لما سمي بنظرية " ألبرت أينشتاين" أو النظرية النسبية، والحديث عن هذا يطول جدا لكنني أكتفي بمقتطفات يسيرة من حديثهم حول ذلك، وكما قيل: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

جاء عند المتكلمين:" ... كالزمان فإنه بالذات كم متصل غير قار، وبالعرض كم منفصل قار؛ لانطباقه على الحركة المنطبقة على المسافة التي هي مقدار، وأيضا قد يكون الشيء الواحد كما بالعرض على وجهين أو أكثر من وجوه العرضية، كالحركة فإنها كم بالعرض من جهة كونها حالة في محل الكم، أعني الجسم المتحرك ولهذا يقبل التجزئة، فإن الحركة القائمة بنصف المتحرك نصف الحركة القائمة بالكل، ومن جهة كونها منطبقة على الكم المتصل الذي هو المسافة، ولهذا تتفاوت قلة وكثرة فإن الحركة إلى نصف المسافة أقل من الحركة إلى منتهاها..." (٢).

---

(١) واستدلوا على نفيه بأمور منطقية يطول ذكرها. انظر شرح المقاصد ١٩١\١ وما قبلها.

(٢) شرح المقاصد في علم الكلام ١٨٤\١.

ويستطرد سعد الدين التفتا زاني في الحديث عن الحركة والزمن في كلام طويل بما يشبه بعض النظريات العلمية الحديثة في إثبات نسبية الزمن من ذلك قوله: "... وذكر ابن سينا أن معنى قولنا الجسم في الزمان أنه في الحركة والحركة في الزمان، وأما غير المتغير أعني ما يكون قار الذات فإنما ما ينسب إلى الزمان بالحصول معه لا بالحصول فيه....على ما قالوا إن نسبة المتغير إلى المتغيَّر هو الزمان، ونسبة الثابت إلى المتغير هو الدهر ونسبة الثابت إلى الثابت هو السرمد..."[1].

وعندي أن ماهية الزمن وعلاقته بالحركة والكتلة سر من أسرار الحياة " قد اتفقوا على خفاء ماهيته "[2] لذلك كلما غصنا في أعماقه ازدادت أسراره، وفي نظرية النسبية الخاصة للعالم الفيزيائي الألماني الشهير أينشتاين كشف لبعض الحقائق العلمية، فقد أثبت أن مرور الزمان نسبي وليس بمطلق، بل يتأثر بسرعة حركة الجسم وقرب تلك السرعة من سرعة الضوء. [3]

فلو سارت أي كتلة أرضية بسرعة الضوء- وهذا لا يكون – فإنها تدخل مرحلة توقف الزمن أو الأبد كما تشير إليه تلك النظرية وهذا من صفات العالم الأخروي كما تفيد بذلك النصوص فالآخرة دار الخلود، يبعث الناس فيها على ترب واحدة، لا يشيبون ولا يهرمون.

ومما يحسن التنبيه إليه أن حجر الأساس لنسبية الزمن على الوجه الذي ذكره أينشتاين سبق إليها فيما يظهر لي من خلال البحث علماء المسلمين الأوائل،

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام ١/ ١٨٩.

(٢) ولدت هذه النظرية في عام ١٩٠٥م، وسرعة الضوء تقدر بـ ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية.

فالقول بالنسبية هو ظاهر قول سعد الدين التفتا زاني المتوفى سنة ٧٩١هـ في كتابه شرح المقاصد في علم الكلام الذي سبق النقل عنه آنفا، وفيه أيضا يقول:" ... نفترض حركة في مسافة معينة بقدر من السرعة وحركة أخرى في تلك المسافة مثل الأولى في السرعة فإن توافقتا مع ذلك الترك دون الأخذ بأن كان ابتداء الثانية متأخرا عن ابتداء الأولى فبالضرورة تقطع الثانية أقل مما قطعته الأولى ، وكذا إن توافقتا في الأخذ والترك وكانت الثانية أبطأ فإنها تقطع أقل ، فبين أخذ السريعة الأولى وتركها إمكان قطع مسافة معينة بسرعة معينة وإمكان قطع مسافة أقل منها ببطء معين ، وبين أخذ السريعة الثانية وتركها إمكان أقل من الإمكان بتلك السرعة المعينة فهناك أمر مقداري أي قابل للزيادة والنقصان بالذات تقع فيه الحركة وتتفاوت بتفاوته ضرورة أن قبول التفاوت ينتهي إلى ما يكون بالذات وهو الذي عبرنا عنه بالإمكان وسميناه بالزمان فيكون موجودا وليس هو نفس السرعة ولا امتداد المسافة ولا امتداد المتحرك ، لأنه قد يختلفان كالحركة في تمام المسافة تساوي نصف تلك الحركة في السرعة مع الاختلاف في المقدار وكالحركتين المتساويتين في مقدار المسافة على اختلاف مقدار هذا الإمكان لاختلافهما بالسرعة والبطء أو على العكس بأن تقطع السريعة في ساعة فرسخا والبطيئة نصف فرسخ وكحركة الجسم الصغير والكبير مسافة معينة في ساعة أو حركة الجسمين المتساويين في المقدار بقطع المسافة إحداهما في ساعة والأخرى في نصف ساعة .

فإن قيل : قد بينتم إثبات وجود الزمان على مقدمات يبتنى الحكم فيها على وجود الزمان كالحكم بأن هذه الحركة مع تلك أو متأخرة عنها أي بالزمان وأسرع منها أي تقطع المسافة في زمان أقل أو تقطع في زمان مساو لزمانها مسافة أطول فيكون دورا قلنا : لا نسلم توقف صحة هذه الأحكام على كون الزمان موجودا في الخارج فإن المنكرين يعترفون بكون الشيء مع الشيء أو بعده وكون

بعض الحركات أسرع من البعض وأجاب الإمام بأن المقصود من هذا البرهان تحقيق ماهية الزمان وكونه مقدارا للحركة لا إثبات أصل وجوده فإنه بديهي .

..... وقد اتفقوا على خفاء ماهيته فقال كثير من المتكلمين هو متجدد معلوم يقدر به متجدد غير معلوم كما يقال أتيك عند طلوع الشمس وربما يتعاكس بحسب علم المخاطب حتى لو علم وقت قعود عمرو فقال متى قام زيد يقال في جوابه حين قعد عمرو ولو علم وقت قيام زيد وقال متى قعد عمرو يقال في جوابه حين قام زيد ولذلك يختلف تقدير المتجددات باختلاف ما يعتقد المقدر لظهوره عند المخاطب كما تقول العامة للعامة اجلس يوما والقاري اجلس قدر ما تقرأ الفاتحة والكاتب قدر ما تكتب صفحة والتركي قدر ما يطبخ مرجل لحما ولا يخفى أن ليس في هذا التفسير إفادة تصور ماهية الزمان .

وأما الفلاسفة فذهب أرسطو وأشياعه إلى أنه مقدار حركة الفلك الأعظم واحتجوا على ذلك بأنه مقدار أي كم متصل أما الكمية فلقبوا له المساواة واللامساواة فإن زمان دورة من الفلك مساو لزمان دورة أخرى منه وأقل من زمان دورتين وأكثر من زمان نصف دورة وأما الاتصال فلأنه لو كان منفصلا لانتهى إلى مالا ينقسم أصلا كوحدات العدد لأن هذا حقيقة الانفصال فيكون تألفه من الآنات المتتالية ويلزم منه الجزء الذي لا يتجزأ لانطباقه على الحركة المنطبقة على المسافة ثم إنه مقدار لأمر غير قار الذات وهو الحركة وإلا لكان هو أيضا قار الذات أي مجتمع الأجزاء في الوجود فيكون الحادث في اليوم حادثا يوم الطوفان وهو محال ولا يجوز أن يكون مقدار الحركة مستقيمة لأنها لازمة الانقطاع لما سيجيء من تناهي الأبعاد ومن امتناع اتصال الحركات المستقيمة على مسافة متناهية والزمان لا ينقطع كما مر فتعين أن يكون مقدارا بحركة مستديرة ويلزم أن

يكون أسرع الحركات ليكون مقدارها أقصر فيصلح لتقدير جميع الحركات فإن الأقل يقدر به الأكثر من غير عكس كتقدير الفرسخ بالذراع وتقدير المائة بالعشرة وأسرع الحركات الحركة اليومية المنسوبة إلى الفلك الأعظم (١) " .

---

(١) ١/ ١٨٧، ١٨٨.

المسافة بين النحاة واستعمال الفصحاء

رَكَنَ النحاة إلى اعتماد طول الكلام وبعد المسافة مؤثرا في تغيير حال أو رد حكم، أو استحسان شيء، دون أن ينكر بعضهم على بعض القول بتأثير المطل في اللسان العربي ومع هذا فإن مصطلح طول الكلام أو المسافة عند النحاة لم يحض بحد يتفقون عليه، بل تراهم يرون زيادة الحرف الواحد أو الحرفين في الجملة طولا يندرج تحت ما يعبرون عنه بطول الكلام، وأما أكثره فقد أجازوا الاعتراض بجملة أو جملتين، وخالفهم الزمخشري عندما جوز الاعتراض بسبع جمل، وأظنه لا مانع لديه من المزيد على ذلك لورود ذلك في الكلام الفصيح وقد استشهد على ذلك بقوله تعالى:" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ "[1]

ولقد رأيت المبرد يجيز الاعتراض بأكثر مما جوزه الزمخشري ولم ينتبه احد ممن ذكر الخلاف إلى موقفه الذي فتح فيه جواز الاعتراض بالجمل الكثيرة دون حد، يقول:"... إنما وقع القسم على قوله ..."إن بطش ربك لشديد" وقد قال قوم إنما وقع على "قتل أصحاب الأخدود" وحذفت اللام لطول الكلام وليس القول عندنا إلا الأول لأن هذه الاعتراضات توكيد...." [2] فعلى هذا جواز الاعتراض بنحو سبع عشرة جملة، و الصواب الذي أراه أنه لا حد لأكثر الفصل أو طول الكلام أو المسافة بين متلازمين ، يشهد لذلك مذهب المبرد السابق ، وما

---

(١) النقاضب١١\١٢٧.

(٢) ٩٦ ،٩٧، ٩٨ . انظر الكشاف ٢/ ٦٨ ، والجواب السامي ١١١ .

عليه بعض المفسرين من حمل قوله تعالى:"إن ذلك لحق تخاصم أهل النار" على أنه جواب القسم في أول السورة.

ورأي بعضهم أيضا[١] أن قوله تعالى في سورة الصافات:" فاستفتهم ألربك البنات"[٢] معطوف على قوله تعالى:" فاستفتهم أهم أشد خلقا "[٣] وكذلك ما جاء في أشعارهم من الفصل بجمل كثيرة ومنه قول الخنساء ـ رضي الله عنها ـ في رثاء صخر:

فما عجولٌ على بوٍّ تطيف به ... لها حنينان: إعلانٌ وإسرار

ترتع ما غفلت حتّى إذا ادّكرت ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبار

يوماً بأوجد منّي حين فارقني ... صخرٌ وللدّهر إحلاءٌ وإمرار

وإنّ صخراً لوالينا وسيّدنا ... وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار[٤]

فقولها :"فما عجول" خبره جاء متأخرا بعد جمل كثيرة، وهو "بأوجد" .

ومنه أيضا قول المرقش الأصغر:

وما قَهْوَةٌ صَهبْاءُ كالمِسْكِ رِيحُها ... تُعَلَّي علي النَّاجُودِ طَوْراً وتُقْدَحُ

ثَوَتْ في سِباءِ الدَّنِّ عِشْرِين حِجَّةً ... يُطانُ عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّحُ

---

(١) المغني

(٢) الصافات ١٤٩ .

(٣) الصافات ١١.

(٤) ديوانها ١/ ٣٥

سَباها رِجالٌ من يَهُودَ تَباعَدُوا ... لِحِيلاَنَ يُدْنيها من السُّوقِ مُرْبِحُ

بِأَطْيَبَ مِنْ فيها إِذَا جئْتُ طارِقاً ... منَ اللَّيْلِ، بَلْ فُوها أَلَذُّ وأَنْصَحُ[1]

ومثله قول ذي الرمة :

فَمَا ظَبْيَةٌ تَرْعَى مَسَاقِطَ رَمْلَةٍ كَسَا الْوَاكِفُ الْغَادِي لَهَا وَرَقاً نَضْرَا

تلاعاً هراقتْ عندَ حوضى وقابلتْ مِنَ الْحَبْلِ ذِي الأَدْعَاصِ آمِلَةً عُفْرَا

رأتْ اناً عندَ الخلاءِ فأقبلتْ ولمْ تبدِ إلاَّ في تصرفها ذعرا

بِأَحْسَنَ مِنْ مَيٍّ عَشِيَّةَ حَاوَلَتْ لتجعلَ صدعاً في فؤادكَ أو وقرا

وأطول منه فصلا قول المجنون :

أنِيري مَكانَ البَدْرِ إنْ أفَلَ البَدْرُ وَقومِي مَقَامَ الشَّمسِ ما اسْتَأخَرَ الفَجْرُ

ففيك من الشمس المنيرة ضوؤوها وَلَيْس لَهَا مِنْكِ التَّبَسُّمُ وَالثَّغْرُ

بلى لَكِ نُورُ الشَّمْسِ والبَدْرُ كُلُّهُ ولا حملت عينيك شمس ولا بدر

لَك الشَّرْقَةُ اللألْاءُ والبَدْرُ طَالِع وليس لها مِنْكِ التَّرَائِب والنَّحْرُ

ومن أيْنَ لِلشَّمْسِ المُنِيرةِ بالضُّحى بِمَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنْ في طرْفِهَا فَتْرُ

وأنى لها من دل ليلى إذا انثنت بِعَيْنَي مَهاةِ الرَّمْلِ قَدْ مَسَّهَا الذُّعرُ

تَبَسَّمُ لَيْلَى عَنْ ثَنَايا كأنَّها أقاح بجرعاء المراضين أو در

منعمة لو باشر الذر جلدها لأَثَّرَ مِنْهَا في مَدَارِجِها الذَّرُّ

---

(١) المفضليات ١ / ٤٣

إذا أقْبَلَتْ تَمْشِي تُقارِبُ خَطوَهَا إلى الأقرب الأدنى تقسمها البهر

شعِمَرِيضَةُ أَثْنَاء التَّعَطُّفِ إنَّها تخاف على الأرداف يثلمها الخصر

فَمَا أُمُّ خِشْفٍ بالْعَقِيقَيْنِ تَرْعَوِي إلى رشأ طفل مفاصلها خدر

بِمُخْضَلَّةٍ جادَ الرَّبِيعُ زُهَاءَهَا رهائم وسمي سحائبه غزر

وَقَفْنا عَلَى أطْلاَلِ لَيْلَى عَشِيَّةً بأجرع حزوى وهي طامسة دثر

يُجَادُ بِها مُزْنَانِ: أسْحَمُ بَاكِرٌ وآخر معهاد الرواح لها زجر

وأوفى على روض الخزامى نسيمها وأنوارها واخضوضل الورق النضر

رواحا وقد حنت أوائل ليلها روائح لأظلام ألوانها كدر

تقلب عيني خازل بين مرعو وَآثار آياتٍ وَقَدْ رَاحَتِ العُفْرُ

بِأحْسَنَ مِنْ لَيْلَى مِعُيدَةَ نَظْرةٍ إلي التفاتاً حين ولت بها السفر[1]

ومثله قول عماد الدين الأصبهاني :

وما روضة غناء مرهوبة الثرى مضوعة الأسحار طيبة الفصل

شمائلها طابت وطاب شمالها سقتها شمولا عند مجتمع الشمل

تردد أنفاس النسيم عليلة عليها فيشفي مرها كل معتل

تهب الصبا فيها بليل بليلة على زهر من عبرة الطل مبتل

لها من ثغور الأقحوان تبسم وتنظر عن أحداق نرجسها النجل

---

(١) ديوانه ١/ ٥٠

كأن نعاماها تبلغ نحونا تحيا قرأناها على ألسن الرسل

تؤرج أرجاء الرضاء كأنما تجامل في حمل التحية عن جمل

تنوح بها الورقاء شجوا كأنها مفجعة بين الحمائم بالشكل

مطوقة أبلت سواد حدادها ففي الجيد باق منه طوق له كحلي

بأحسن من أخلاقك الزهر بهجة وأذكى وأزكى من سجيتك الرسل

إليك سرت مني مطايا مدائح من الشكر والإحماد موقرة الحمل[1]

ومما ورد من ذلك في أشعار العرب ورود جواب القسم بعد خمسة وعشرين بيتا في قصيدة صريع الخمر[2] :

أبالصرم من أسماء حدثك الذي جرى بيننا يوم استقلت ركابها

زجرت لها طير الشمال فإن تكن هواك الذي تهوى يصبك اجتنابها

وقد طفت من أحوالها وأردتها سنين فأخشى بعلها أو أهابها

ثلاثة أعوام فلما تجرمت علينا بهون واستحار شبابها

عصاني إليها القلب إني لأمره سميع فما أدري أرشد طلابها

فقلت لقلبي يا لك الخير إنما يدليك للموت الجديد حبابها

وأقسم ما إن بالة لطمية فوح بباب الفارسيين بابها

لا الراح راح الشام جاءت سبيئة لها غاية تهدي الكرام عقابها

---

(١) ديوانه ١/ ٣٥٣ .

(٢) أبو ذؤيب الهذلي

عقار كماء النيء ليست بخمطة ولا خلة يكوي الشروب شهابها

توصل بالركبان حينا وتؤلف الـ جوار ويغشيها الامان ربابها

فما برحت في الناس حتى تبينت ثقيفا بزيزاء الأشاة قبابها

فطاف بها أبناء آل معتب وعز عليهم بيعها واغتصابها

لما رأوا أن أحكمتهم ولم يكن يحل لهم إكراهها وغلابها

أتوها بربح حاولته فأصبحت تكفت قد حلت وساغ شرابها

بأري التي تهوي إلى كل مغرب إذا اصفر ليط الشمس حان انقلابها

بأري التي تأري اليعاسيب أصبحت إلى شاهق دون السماء ذؤابها

جوارسها تأري الشعوف دوائبا وتنقض ألهابا مصيفا كرابها

إذا نهضت فيه تصعد نفرها كقتر الغلاء مستدرا صيابها

تظل على الثمراء منها جوارس مراضيع صهب الريش زغب رقابها

فلما رآها الخالدي كأنها حصى الخذف تهوي مستقلا إيابها

أجد بها أمرا وأيقن أنه لها أو لأخرى كالطحين ترابها

فقيل تجنبها حرام وراقه ذراها مبينا عرضها وانتصابها

فأعلق أسباب المنية وارتضى ثقوفته إن لم يخنه انقضابها

تدلى عليها بين سب وخيطة بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

فلما اجتلاها بالإيام تحيزت ثبات عليها ذلها واكتئابها

فأطيب براح الشأم صرفا وهذه معتقة صهباء وهي شيابها

فما إن هما في صحيفة بارقية جديد حديث نحتها واقتضابها

بأطيب من فيها إذا جئت طارقا من الليل والتفت عليك ثيابها

رأتني صريع الخمر يوما فسؤتها بقران إن الخمر شعث صحابها

ولو عثرت عندي إذن ما لحيتها بعثرتها ولا أسيء جوابها

ولا هرها كلبي ليبعد نفرها ولو نبحتني بالشكاة كلابها

فقوله : (بأطيب من فيها) في البيت الثامن والعشرين خبر قوله :(وأقسم ما إن بالة لطمية) في البيت السابع ، وهو طول عجيب .

ولقد رأيت شيئا من هذا المطل في الكلام عند الشيخ ابن عنقاء في كتابه الغرر(١) قال:" لكن لما كثر الخلاف في أداة التعريف..... ساغ لهم التعبير ...." فقوله (ساغ) جاء بعد جمل كثيرة تزيد على خمس عشرة جملة في ثلاثة أسطر.

وتقع الجملة أو الجمل المعترضة بين الفعل ومرفوعه، وبين الفعل ومفعوله، والمبتدأ والخبر، وما أصلهما المبتدأ والخبر، والشرط وجوابه، والموصوف وصفته، والموصول وصلته، وبين أجزاء الصلة، والمتضايفين، والجار والمجرور، والحرف الناسخ وما دخل عليه، وحرف التنفيس والفعل وحرف النفي ومنفيه، وبين جملتين مستقلتين"(٢) والقسم وجوابه أيضا

---

(١) ص ١١٣/أ.

(٢) الكليات ٣٤٣\١١

قال الشيخ ابن عنقاء :" وإنما يعترض بها بين الشيئين المتلازمين، المنفصل أجزاء بعضهما عن بعض، المقتضي كل منهما الآخر، كالفعل ومرفوعه المنفصل فاعلا، أونائبا، أو اسما ولوضميرا، أو الفعل ومنصوبه المنفصل مظهرا، أو مضمراً، مفعولا، أو خبرا، أو غيرهما، أو المبتدأ وخبره، أو اسم الناسخ وخبره، أو الشرط وجوابه، أو القسم وجوابه، أو الموصوف وصفته، أو الموصول الاسمي وصلته، أو أجزاء الصلة المتفاصلة ، أو المتضايفين بشرط انفصالهما ظاهرا بحسب اللفظ، أو كـ(لا أخا - فاعلم - لك) بناء على الأصح، أن الأصل: (لا أخاك)[1] بحذف خبر (لا) البيئة، فزيدت اللام بين المتضايفين فقيل: لا أخالك، أو الحرف ومجروره الظاهر، ولومتصلا به كالباء، أو الحرف الناسخ ومدخوله منفصلا، أو الحرف المنفصل وتأكيده، والظاهر أنّ غير الحرف كذلك، أو (سوف) ومدخولها.

وظاهر كلام ابن هشام[2] وغيره أن السين كذلك، وليس بمراد، أو حرف النفي ومنفيه[3]، أو جملتين مستقلتين، بشرط اتصالهما معنى، ولوكانتا مستأنفتين"[4].

ومما تقدم يظهر لي أن الاعتراض بين المتلازمات وما في حكمها لا حد لجمله بعدد معين، وذلك هو ما جاءت شواهده من فصيح النصوص نثرا ونظما، فقول بعض النحاة والمفسرين في ردهم في بعض الوجوه " وهو غاية في البعد لطول الكلام " ليس بسديد.

---

(١) عند جمهور النحاة، انظر سيبويه (١/ ٣١٥)، المساعد (٢/ ٣٤٣).

(٢) في المغني(٢/ ٣٩٣).

(٣) وكذلك يدخل الاعتراض بين (قد) والفعل.

(٤) الجواب السامي ٦٥/ ب انظر الاستشهاد لكل ما تقدم من المواضع في المغني (٢/ ٣٨٧) وما بعدها

وممن ذهب إلى فتح باب الاعتراض بالجمل الكثيرة دون حد الشيخ ابن عاشور في تفسيره الموسوم بالتحرير والتنوير، فقد جاء في عدة مواضع حمل بعض الجمل على التلازم وقبول معانيها وتوجيهها وفقا لذلك دون أن يمنع من ذلك عنده ما اعترض بين تلك الجمل على كثرتها ، من ذلك :

قوله في التحرير والتنوير ٨١\١١٨ :" ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون" (١)

عطف على جملة " حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون" وما بينهما اعتراضات.

وما بين المعطوف والمعطوف عليه إحدى عشرة آية كل آية بها جمل كثيرة.

وجاء فيه أيضا ١٠٦\١١٨ : " قرأ الجمهور:" قال كم لبثتم" بصيغة الماضي فيتعين أن هذا القول يقع عند النفخ في الصور وحياة الأموات من الأرض، فالأظهر أن يكون هو جواب"إذا" في قوله فيما سبق:"فإذا نفخ في الصور"... وما بينهما اعتراضات نشأت بالتفريع والعطف والحال والمقاولات العارضة".

وفيه أيضا ٦٤\١١ " وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم.." الاية ١٤٢ من سورة التوبة، عطف على قوله:" وإذا أنزلت سورة أن امنوا بالله وجاهدوا مع رسوله..." آية٨٦ ، وهذا عود على بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات " .

---

(١) المؤمنون ٧٥ .

توجيـــه المســافة لأحكام النحاة

إن طول الكلام يتوجه إلى المسافة ببعديها الزمني والمكاني فالكلام المنطوق على الأول والمكتوب على الثاني ، إذ الكتابة كما يقولون إنما هي محاولة لنقل اللغة من بعدها الزمني إلى البعد المكاني فالظواهر الصوتية تتابع في الزمن والحروف المكتوبة تتابع في المكان.

ولقد تتبعت كتب أئمة النحاة والمفسرين لجمع مواقفهم من المسافة ومدى تأثيرها في أحكامهم وتعليلاتهم النحوية وتبين لي أن ذلك التأثر والتعويل على طول الكلام أو تقارب الألفاظ وبعدها فيما بينها فيما يخص المتلازمات وما في حكمها، قد أصبح تشريعا نحويا سائغا عندهم يعتمدونه في أحكامهم ويستحسنونه وما أفضى إليه من مخالفات لقواعدهم وأقيستهم، يصدرون في ذلك عن عامة العرب في استعمالاتهم ومذاهبهم اللغوية.

والمسافة أو طول الكلام حكموا به مع الحرف الواحد ، ونص بعضهم على أن يكون حده الأعلى جملتين أو ثلاث على نحو ما أشرت إليه في توطئة البحث، حتى رأيت المسافة أولى بعبارة ابن جني في المحمول على المعنى في الخصائص ٢\٤١١ قال :" اعلم أن هذا الشرح غور من العربية بعيد ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورا ومنظوما..."

وفيما يتلو اقتصر على نماذج تبين المراد وتجلي الفكرة تحت عنوانات جانبية لينتفع بها طالبها ويقيس غيرها عليها.

الإعراب والبناء

يدور بين أهل الصنعة من النحاة بعض الخوض في حالة الاسم ويتفقون جميعا على أن الأسماء منها ما هو معرب وهو الأصل ومنها مبني ومنها متمكن وغير متمكن، فيرون أن ما بني من الأسماء علته مشابهة الحرف، ذلك أن الاسم متى اقترب من الحرف قرب مشابهة فإنه يبنى ، كأن يشابهه شبها وضعيا أو معنويا أو افتقاريا، فمدار العلة الشبة، لأنه إذا أشبهه في شيء من ذلك اقترب منه في هيئته وحاله فاقتبس منه البناء ،يقول ابن السراج :

" وإنما بني من (أحد عشر) إلى (تسعة عشر) غير (أثني عشر) لتضمنه معنى واو العطف والأصل ثلاثة وعشرة ، فركب اختصارا ، ومعنى العطف باق في الاسم فيبنى لتضمنه معنى الحرف(١) "

ويقول ابن الأنباري :

" أما المضمر فإنما بني لأنه أشبه الحرف، لأنه جعل دليلا على المظهر، وإذا جعل علامة على غيره أشبه تاء التأنيث ، فإذا أشبه تاء التأنيث فقد أشبه الحرف ، وإذا أشبه الحرف وجب أن يكون مبنيا.

وأما المبهم وهو اسم الإشارة فإنما بني لتضمنه معنى حرف الإشارة فإن قيل فأين حرف الإشارة قيل حرف الإشارة وان لم ينطقوا به إلا أن القياس كان يقتضي أن يوضع له حرف كغيره من المعاني كالاستفهام والشرط والنفي والنهي والتمني والترجي والعطف والنداء والاستثناء ... "(٢) .

---

(١) الأصول ١ / ٣٢١

(٢) أسرار العربية ١/ ٣٠٢ .

وهذا القرب إنما يؤثر هذا التأثير الذي أشرت إليه ،ما لم ينازعه أمر هو من خصائص الاسم كما هو الحال في " أي " الشرطية ، إذ قربها من الحرف معنى لم يحدث فيها البناء ، لأنه حال دونه لزومها الإضافة ، ومثلها " أي " الاستفهامية .

أما الأمر الآخر وهو عدم التمكن فهو أيضا يحمل الاسم على تغيير حاله من الإعراب التام إلى تقمص شخصية الفعل وهو عدم الصرف، وذلك انه إذا اقترب من الفعل بأن أصابته علتين من علل تسع أو واحدة تقوم مقام العلتين فقد وسمه الفعل بشيء من سماته، ومنحه خصلة من صفاته وهي منعه من الصرف ويتبع ذلك أمر آخر وهو انه يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة، لأن الفعل لا يجر، فكذلك ما اقترب منه وحمل عليه، يحمل سمته ويرفع شعاره.

قال ابن السراج :" وإنما منع ما لا ينصرف الصرف لشبهه بالفعل ، كما أعرب من الأفعال ما أشبه الإسم فجميعُ ما لا ينصرف إذا أُدخلت عليه الألف واللام أو أُضيف جُرَّ في موضع الجَرِّ، وإنما فُعل به ذلك لأنه دخل عليه ما لا يدخل على الأفعال وما يؤمن معه التنوين ألا ترى أن الألف واللام لا يدخلان على الفعل وكذلك الأفعال لا تضاف إلى شيءٍ وأن التنوين لا يجتمع مع الألف واللام والإِضافة وأصول الأسماء كلها الصرف "(١) .

وجاء عند ابن الأنباري أيضا " وأما غير المنصرف فما لم يدخله الجر مع التنوين وكان ثانيا من جهتين نحو مررت بأحمد و إبراهيم وما أشبه ذلك وإنما منع هذا الضرب من الأسماء الصرف لأنه أشبه الفعل فمنع من التنوين ومنع من الجر تبعا للتنوين لما بينهما من المصاحبة وذهب بعض النحويين إلى أنه منع الجر لأنه

---

(١) الأصول ١ / ٧٩ .

أشبه الفعل والفعل لا يدخله جر ولا تنوين فكذلك ما أشبهه وهذا الضرب يسمى المتمكن ولا يسمى أمكن ، و كل أمكن متمكن ، وليس كل متمكن أمكن.

فإن قيل : فلم لم يدخل الجر مع الألف واللام والإضافة ؟ قيل : للأمن من دخول التنوين مع الألف واللام والإضافة....(١) "

الإضمار والحذف

جمعت طائفة من أقوال أهل العلم فيما يتعلق بالإضمار والحذف والسقوط مما منشأه ومداره على طول الكلام، إذ إنه عندما تطول التراكيب يقع الحذف تخفيفا من الثقل ، وقد تلونت عباراتهم في استساغة ما فقدته الجملة من أركانها أو متطلباتها إلى حد الترغيب والاستحسان لذا المذهب والعادة من كلامهم على نحو قولهم: هذا الحذف أو الإضمار حسن لطول الكلام أو جيد أو غاية في الحسن، وجعلوا من المسافة عوضا عن المحذوف حتى أغنى عندهم طول العهد عن العمدة أحيانا.

يقول شيخ النحاة : " وإذا قلت: ذهبتْ جاريتاك أو جاءتْ نساؤك، فليس في الفعل إضمارٌ، ففصلوا بينهما في التأنيث والتذكير، ولم يفصلوا بينهما في التثنية والجمع. وإنما جاءوا بالتاء للتأنيث لأنها ليست علامةَ إضمار كالواو والألف، وإنما هي كهاء التأنيث في طَلْحة، وليست باسم.

وقال بعض العرب: قال فُلانةُ.

وكلما طال الكلام فهو أحسنُ، نحو قولك: حضر القاضي امرأةٌ؛ لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل، وكأنه شيءٌ يصير بدلاً من شيء، كالمعاقبة نحو

---

(١) أسرار العربية ١/ ٥٤ .

قولك: زنادقة وزناديق، فتحذف الياء لمكان الهاء، وكما قالوا في مُغتَلِم: مُغَيلِم ومُغَيليم، وكأن الياء صارت بدلاً مما حذفوا "(١).

وحول هذا يقول ابن عصفور : " إن فصلت جاز حذفها نحو: قام اليوم هندٌ، ومن كلام العرب: حَضَرَ القاضِيَ اليومَ امرأةٌ. والإِثبات أحسن. وكلما طال الفصل كان الحذف أجود، والإِثبات في هذا كله أَحسن.

فإن كان غير عاقل فلا يخلو أن تفصل بينه وبين الفعل أَو لا تفصل. فإِن لم تفصل جاز الحذف والإِثبات نحو: مشت الدابّةُ ومشَى الدابَةُ، والحذف قبيح.

فإن فصلت حسن الحذف والإِثبات مثل: جرت اليومَ الدابةُ، ومشى اليومَ الدابةُ. وكلما طال الفصل كان الحذف أجود، والإِثبات في هذا كله أَحسن. فإِن كان مواتاً فلا يخلو أَن تفصل أَو لا تفصل. فإِن لم تفصل جاز الحذف والإِثبات فتقول: انكسرت وانكسرَ القِدرُ. والإِثبات أحسن.

فإن فصلت حسن الحذف مثل قولك: انكسرت اليومَ القِدرُ، وانكسرَ اليومَ القِدرُ. وكلما طال الفصل كان الحذف أجود، والإِثبات في هذا كله أَجود من الحذف "(٢).

يقول ابن هشام : " المسألة الأولى حذفُ الجواب وشَرْطُهُ أَمْرَان أَحَدُهما أن يكون معلوماً والثاني أن يكون فعل الشرط ماضياً تقول : أَنْت ظالم إِن فَعَلْتَ لوجود الأمرين ويمتنع : إن تقم وان تقعد ونَحْوُهُما حيث لا دليل ، لانتفاء الأمرين ، ونحو: إن قُمْتَ حيث لا دليل لانتفاء الأمر الأول ، ونحو أَنْتَ ظَالِمٌ إن

---

(١) الكتاب ١ / ٩٨ .

(٢) شرح جمل الزجاجي ٣ / ٧٦، ٧٧ .

تَفْعَل لانتفاء الأمر الثاني ، قال الله تعالى : (وَانْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعراضهم فَإِنِ اسْتَطَعْتِ أن تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرْضِ أوْ سُلَّماً في السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ)[1] تقديره فافعل والحذف في هذه الآية في غَايَةٍ من الحسن ، لأنه قد انضم لوجود الشرطين طُولُ الكلام ، وهو مما يحسن معه الحذف "[2] .

ولابن السراج : " وتقول : ما فيها إلا زيد وما علمت أن فيها إلا زيداً ولا يجوز : ما إلا زيد فيها ولا ما علمت أن إلا زيداً فيها وإنما حسن لما قدمت وفصلت بين أن وإلا لطول الكلام كأشياء تجوز في الكلام إذا طال وتحسن "[3] .

وقال ابن جني في سياق الحديث عن العائد :" فإن كان الضمير في الصلة منصوبا متصلا بالفعل جاز حذفه جوازا حسنا لطول الكلام تقول كلمت الذي كلمت أي الذي كلمته حذفت الهاء لطول الاسم ، فإن انفصلت لم يجز حذفها تقول الذي مررت به زيد ولا تقول الذي مررت زيد لانفصال الضمير من الفعل واتصاله بالباء "[4] .

وعند أسلافنا من النحاة لا يحذف المبتدأ لكنهم استحسنوا الحذف مع طول الكلام ، قال في الأصول : " فأما اتفاقهما ـ يعني من وما ـ فإنهما يستفهم بهما ويكونان بمعنى (الذي) تقول : اضرب أيهم هو أفضل وأعط أيهم كان أفضل واضربْ أيهم أبوهُ زيد كما تقول : اضربْ منْ أبوهُ زيد ومن هو أفضل فإن قلت : (اضربْ أيهم عاقلٌ) رفعت هذا مذهب سيبويه وهو عندي مبني (لأنَّ) الذي

---

(١) الأنعام ٣٥ .
(٢) شرح شذور الذهب ١/ ٤٤٥ .
(٣) الأصول ١ / ٢٩٨ .
(٤) اللمع ١ / ١٩١.

عاقل قبيح فإن دخلت (هو) نصبت وزعم الخليل أنه سمع عربياً يقول : ما أنا بالذي قال لك شيئاً فعلى هذا تقول : اضربْ أيهم قائل لك خيراً إذا طال الكلام حَسُنَ حذف (هو) . (١)

وقال أبو حيان :" وقال الزمخشري : وأوتينا العلم من كلام سليمان وملئه ، فإن قلت : علام عطف هذا الكلام وبما اتصل؟ قلت : لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها ، وأجابت بما أجابت به مقاماً ، أجرى فيه سليمان وملأه ما يناسب قولهم : { وأوتينا العلم } ، نحو أن يقولوا عند قولها : { كأنه هو } ، قد أصابت في جوابها ، فطبقت المفصل (٢)، وهي عاقلة لبيبة ، وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة .

وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان ما جاء من عنده قبل علمها ، ولم نزل نحن على دين الإسلام ، شكروا الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة.

ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها { كأنه هو } ، والمعنى : وأوتينا العلم بالله ـ وبقدرته وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة ، أو قبل هذه الحالة ، يعني ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ـ ودخلنا في الإسلام .

---

(١) الأصول ٢/ ٣٩٦ ..

(٢) قالت : كأنه هو ، ولم تقل : هو هو مع أنها عرفته ليكون دليلاً على وفور عقلها حيث لم تقطع في المحتمل ،وتوقفت في مقام التوقف

ثم قال الله تعالى : { وصدها } قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل.

وقيل : وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار واتصال الفعل. انتهى.

أما قوله : ويجوز أن يكون من كلام بلقيس ، فهو قول قد تقدم إليه على سبيل التعيين لا الجواز[1].

قيل : والمعنى وأوتينا العلم بصحة نبوته بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة ، يعني إحضار العرش.

وكنا مسلمين مطيعين لأمرك منقادين لك.

والظاهر أن الفاعل بصدّها هو قوله : { ما كانت تعبد } ، وكونه الله أو سليمان ، وما مفعول صدّها على إسقاط حرف الجر ، قاله الطبري ، وهو ضعيف لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، نحو قوله :

تمرون الديار ولم تعوجوا ..... [2]

أي عن الديار ، وليس من مواضع حذف حرف الجر.

وإذا كان الفاعل هو " ما كانت " فالمصدود عنه الظاهر أنه الإسلام.

وقال الرماني : التقدير التفطن للعرش ، لأن المؤمن يقظ والكافر خبيث.

---

(١) يعني أن الزمخشري مسبوق إلى هذا القول لكن على سبيل القطع به والتعيين لا الجواز .

(٢) ..... كلامكم علي إذن حرام لجرير ديوانه ١/ ٢٧٨ .

والظاهر أن قوله : { وصدها } معطوف على قوله : { وأوتينا } ، إذا كان من كلام سليمان ، وإن كان يحتمل ابتداء إخبار من الله تعالى لمحمد نبيه ولأمته.

وإن كان وأوتينا من كلام بلقيس ، فالظاهر أنه[1] يتعين كونه من قول الله تعالى وقول من قال إنه متصل بقوله : { أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون }.

والواو في صدها للحال ، وقد مضمرة مرغوب عنه لطول الفصل بينهما ، ولأن التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة "[2] .

وكذلك أشار ابن عطية إلى شيء مما حسنه طول المسافة ، قال : " قوله تعالى : { كتب عليكم }[3] كأن الآية متصلة بقوله { يا أيها الذين آمنوا }(٤)فلذلك سقطت واو العطف ، و { كتب } معناه فرض وأثبت ، .... و{ كتب } عامل في رفع { الوصية } على المفعول الذي لم يسم فاعله في بعض التقديرات ، وسقطت علامة التأنيث من { كتب } لطول الكلام فحسن سقوطها ، وقد حكى سيبويه : قام امرأة ، ولكن حسن ذلك إنما هو مع طول الحائل ، ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل { الوصية } في { إذا } لأنها في حكم الصلة للمصدر الذي هو { الوصية } ، وقد تقدمت فلا يجوز أن يعمل فيها متقدمة ، ويتجه في إعراب هذه الآية أن يكون { كتب } هو العامل في { إذا } والمعنى توجه إيجاب الله عليكم ومقتضى كتابه إذا حضر ، فعبر عن توجه الإيجاب ب { كتب } لينتظم إلى هذا المعنى أنه مكتوب في الأزل ، و { الوصية } مفعول لم يسم فاعله ب

---

(١) يعود الضمير على " وصدها " .

(٢) البحر ٨ / ٤٨٥.

(٣) البقرة ١٨٠ .

(٤) البقرة ١٧٨ .

{ كتب } وجواب الشرطين { إذا } و { إن } مقدّر ، يدل عليه ما تقدم من قوله { كتب عليكم } ، كما تقول شكرت فعلك إن جئتني إذا كان كذا ، ويتجه في إعرابها أن يكون التقدير : كتب عليكم الإيصاء ، ويكون هذا الإيصاء المقدر الذي يدل عليه ذكر الوصية بعد هو العامل في { إذا } ، وترتفع { الوصية } بالابتداء وفيه جواب الشرطين ...." (١) .

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٣٤.

طـــول الكلام عوض

وإذا كنا رأينا من خلال الفقرة السابقة أن المسافة تسوغ الحذف وتسهله، فإن ما نسطره هنا ونورده من الأمثلة من كلام النحاة والمفسرين يدل على أن المسافة فيها عوض وخلف عما فقده الكلام حيث كان هذا الطول في الكلام ومطله بمثابة المحذوف فأعقبه وكان له عوضا، صرح بهذا التعويض بعض الأئمة من أهل العلم، من ذلك قولهم:

جاء في المقتضب :" فأما قوله: " والشمس وضحاها " فإنما وقع القسم على قوله: " قد أفلح من زكاها " وحذفت اللام لطول القصة، لأن الكلام إذا طال كان الحذف أجمل.

ألا ترى أن النحويين لا يقولون: قام هند، وذهب جاريتك، ويجيزون: حضر القاضي اليوم امرأةٌ يا فتى، فيجيزون الحذف مع طول الكلام؛ لأنهم يرون ما زاد عوضاً مما حذف"[1].

وقال ابن عصفور: " فمثال الفصل بمعمول العامل في الضمير المعطوف عليه قوله تعالى: {هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَئِكَتُهُ}[2] فقوله تعالى: وملائكتُهُ، معطوف على الضمير الذي في يُصلّي فلم تحتج إلى تأكيد لطول الكلام بـ عليكم الذي هو معمول لـ«يُصلّي» العامل في الضمير المعطوف عليه الملائكة.

ومثال الفصل قوله تعالى {مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَآؤُنَا}[3] . فقوله: ولا أباؤنا معطوف على الضمير في أشركنا. ولم يحتج إلى التأكيد للطول بـ«لا» التي بعد

---

(١) المقتضب ١ / ١٢٧.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

(٣) الأنعام: ١٤٨

الواو، وإنّما احتيج إلى التأكيد أو الطول لأَنّهم كرهوا أن يكون المعطوف لم يتقدم له في الذكر ما يُعطف عليه، فجعلوا هذا التأكيد أو الطول عوضاً من ذكر المعطوف عليه " [1] فكان من حق الضمير المستتر في " يصلي " والمتصل في " أشركنا " أن يؤكد كل منهما بضمير ظاهر منفصل ،ولكنه كان في طول الكلام عوض عن ذلك .

وفي الخصائص : " ومما يجيزه القياس غير أن لم يرد به الاستعمال خبر العَمْر والأُيمنُ من قولهم : لعَمْرُك لأقومنّ ،ولأيمْنُ الله لانطلقن ، فهذان مبتدآن محذوفا الخبرين وأصلهما لو خرج خبراهما: لعمركُ ما أقسم به لأقومن، ولأيمنُ الله ما أحِلف به لانطلقن ، فحِذف الخبران وصار طول الكلام بجواب القسم عِوضا من الخبر "[2] .

وفي شرح الكافية : " ومع الفصل قد يؤكد بالمنفصل، كقوله تعالى: (فكبكبوا فيها هم والغاوون) ١، و: (ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) ٢، وقد لا يؤكد ٣، والأمران متساويان، فلذا قال: ويجوز تركه، وإنما جاز الترك ، لأن طول الكلام قد يغني عما هو الواجب، فيحذف طلبا للاختصار، نحو قولك: حضر القاضي امرأة، و:

الحافظو عورة العشيرة ....[3]

---

(١) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١ / ١١٥ .

(٢) الخصئص ١ / ٣٩٣ .

(٣) ..... لا يأتيهم من ورائهم نطف

لقيس بن الحطيم ، أو أبو ذؤيب الهذلي انظر سيبويه ١ / ٣٨ ،المقتضب ١/ ٤٠ ، الجمل ١/ ٢٣٧.

بالنصب، فكيف لا يغني عما ليس بواجب بل هو الأولى، وذلك أن مذهب البصريين أن التأكيد بالمنفصل هو أولى، ويجوزون العطف بلا تأكيد ولا فصل، لكن على قبح "[1].

وفي سر الصناعة : " فأما قولهم في هاء زنادقة وفرازنة : إنها بدل من الياء في زناديق وفرازين ، فليسوا يريدون بذلك البدل على حد إبدالهم الألف في قام وباع عن الواو والياء وإنما يعنون أن الهاء لما طال الكلام بها صارت كالعوض من الياء كما صار طول الكلام بين الفعل والفاعل في نحو حضر القاضي اليوم امرأة عوضا من تاء التأنيث في حضرت وهذا باب واسع إلا أنه ليس مما قدمناه ونحو من هذا قولهم في الهاء من عدة وزنة وشية إنها صارت عوضا من الواو التي هي فاء الفعل في وعدت ووزنت ووشيت فافهم ذلك "[2] .

وفيما أوردناه من كلامهم بالقول بأن الطول في الكلام عوض عما فات منه دليل كاف ونهج واضح يحتذى في كل ما تقدم مما حكم فيه بالحذف وجعل مسوغه طول المسافة لتعميم عبارة العوض أو التعويض في جميع ذلك من كل ما لم يصرح به فيه (أي بالعوض)، وهذا يستلزم عدم جواز الجمع بين العوض والمعوض وهذا مقصودهم وقرارهم من تحرير مادة [ع و ض] في بعض المسائل للتنبيه على أن الشأن والأمر المعاقبة بين شيئين حل أحدهما مكان الآخر.

ولعل فيما بيناه آنفا ما يحمل ما ورد عند بعضهم من مصطلح الإضمار، يحمله على المجاز، إذ مرادهم به ـ والله أعلم ـ الحذف ولكنهم تجوزوا في اللفظ، ولو حملناه على الحقيقة لتعارض مع القول بالمعاوضة، إذ المضمر عند النحاة

---

(١) الرضي ١/ ٣٤٣ .
(٢) سر الصناعة ٢/ ٥٦٠ .

كالملفوظ الظاهر في الحكم ، فيستحيل عندئذ القول بالعوض مع اعتبار مرادهم بالإضمار.

ولما كان طول الفصل عوضا عن شيء محذوف من الجملة ، كما رأينا في الأمثلة السابقة ، فإنهم ربما عكسوا أحيانا فاعتاضوا عما كان ينبغي للجملة أن تكون عليه من طول بشيء مما بقي منها ، وهيئوه لذلك ، ومنه قول العكبري : " وأمَّا قولهم أمَّا زيد فمنطلق ف (زيد) مبتدأ و (منطلق) خبره وإنَّما دخلت الفاء لما في (أمَّا) من معنى الشرط فكان موضعها المبتدأ لكونها تكون في أوَّل لجملة المْجازى بها لكنَّهم أخرَّوها إلى الخبر لئلا تلي الفاء ما في تقدير حرف الشرط وجعلوا المبتدأ كالعوض من فعل الشرط ولا تدخل الفاء على الخبر في غير ذلك إلاَّ في خبر (الذي) إذا وصل بفعل أو ظرف فيه ما يُؤذِنُ بأنَّ ما في الخبر مستحقّ الصلة " (١).

التكـــــــرار والإعادة

قصدت من إيراد هذه الفكرة بعد سابقتها مباشرة التنبيه على شيء هو أشبه ما يكون بالتناقض بين الفقرتين، أو هو سر من أسرار المسافة ،التي أراها ـ أشبهت النعامة ـ ذات وجهين ، فمرة من أجل المسافة كان الحذف، وأخرى من أجلها كان التكرار، وعلى مسائل التكرار تضافرت نصوصهم وتواترت نقولهم، ومن أهم مقاصدهم في إعادة اللفظ وتكراره العناية بتوكيد النصوص، وتقريب المعنى إلى الذهن أو تقريره ، أو الاهتمام به ،أو دفع الوهم ، ونحو ذلك مما حسنت الإعادة لأجله مما هو من مذاهب العرب في كلامهم.

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب ١ / ١٤٧.

وقد أشار إلى ذلك النحاة في مصنفاتهم ، قال ابن السراج : " زعم أبو الحسن : أنها غلط منهُ وأن العطف على عاملين جائز نحو قول الله عز و جل في قراءة بعض الناس (وفي خلقِكم وما بث من دابةٍ آياتٍ) فجر الآيات وهي في موضع نصب ومثل قوله (لعَلى هدىً أو في ضلالٍ مبينٍ) عطف على خبر (إنّ) وعلى (الكل) .

قال أبو العباس : وغلطَ أبو الحسن في الآيتين جميعاً ولكن قوله : (واختلاف الليل والنهار وما أنزل اللهُ من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وتصريف الرياح آياتٍ لقومٍ يعقلون) [١] وابتدأ الكلام : (إن في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين)[٢] (وفي خلقكم وما يبثُّ من دابةٍ آياتٍ لقوم يوقنون واختلاف الليلِ والنهارِ وما أنزلَ اللهُ من السماء من رزقٍ فأحيا بهِ الأرضَ بعد موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٍ)[٣]

بعد هذه الآية وإن جرَّ " آيات " فقد عطف على عاملين وهي قراءة عطف على (إن) و (في) قال وهذا عندنا غير جائز لأن الذي تأوله سيبويه بعيدٌ وقال : لأن الرد غير الخيل والعقرُ راجع إلى الخيل فليس بمتصل بشيء من الخيل ولا داخل في المعنى

وقال : أما قوله :

فليس بآتيكَ منهيها ولا قاصرٌ عنكَ مأمورها [٤]

---

(١) الجاثية ٥ .

(٢) الجاثية ٣.

(٣) .الجاثية ٤ ، ٥ .

(٤) لمحمد بن حازم الباهلي ، أوالأعور الشني . الحماسة البصرية ١/ ١١٤ .

فهو أقرب قليلاً وليس منه لأن المأمورَ بعضها والمنهي بعضها وقربه أنهما قد أحاطا بالأمور وقال : وليس يجوزُ الخفض عندنا إلا على العطف على عاملين فيمن أجازه .

وأما قولُهم : ما كلُّ سوداءَ تمرةٌ ولا بيضاءَ شحمة [1] فقال سيبويه : كأنكَ أظهرت كُلَّ مضمرٍ فقلت : ولا كُلَّ بيضاء فمذهب سيبويه أنَّ (كُلَّ) مضمرة هنا محذوفة وكذلك :

أُكَلَّ امرئ تَحْسَبِينَ امرءاً ... ونَارٍ تَوقَّدُ بالليلِ نَارا[2]

يذهب إلى أنه حذف (كُلُّ) بعد أن لفظ بها ثانية وقال : استغنيت عن تثنيةِ (كلٍّ) لذكرك إياه في أول الكلام ولقلة التباسه على المخاطب قال : وجاز كما جازَ في قوله : ما مثلُ عبد اللهَّ يقول ذاكَ ولا أخيهِ وإن شئت قلت : ولا مثلَ أخيهِ فكما جاز في جمع الخبر كذلكَ يجوز في تفريقه وتفريقُه أن تقول : ما مثلُ عبد الله يقولُ ذاك ولا أخيه يكرهُ ذاكَ قال : ومثلُ ذلك : ما مثلُ أخيكَ ولا أبيكَ يقولانِ ذلكَ، فلما جاز في هذا جاز في ذاك .

وأبو العباس رحمه الله لا يجيزُ : ما مثلُ عبد الله يقولُ ذاكَ ولا أخيهِ يكرهُ ذاكَ والذي بدأ به سيبويه الرفعُ في قولكَ : ما كُلُّ سوداءَ تمرةٌ ولا بيضاءَ شحمةٌ والنصب في (وناراً) هو الوجه وهذه الحروف شواذْ فأما من ظنَّ أن من جَر (آياتٍ) في الآية فقد عطف على عاملين فغلطٌ منهُ ، وإنما نظير ذلك قولك : إنَّ في الدار علامةً للمسلمين والبيتِ عَلاّمةً للمؤمنينِ فإعادة علامة تأكيد وإنما حسنت الإِعادة للتأكيد لما طال الكلام كما تعاد (إن) إذا طال الكلام .....ً كما أنك لو

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ١٨٤.

(٢) لأبي دؤاد الإيادي . الأصمعيات ١/ ١١. .

قلت : إنَّ في الدار الخيرَ والسوق والمسجدَ والبلدَ الخير، كان إعادته تأكيداً ، وحسُن لما طال الكلام .

ف(آياتٌ) الأخيرةُ هي الأولى ،وإنما كانت تكون فيه حجة لو كان الثاني غير الأول حتى يصيرا خبرين ،وأما من رفع وليست (آيات) عنده مكررة للتأكيد فقد عطف أيضاً على عاملين نصب أو رفع ، لأنه إذا قال : (إنَّ في السّمَوات والأرضِ لآيَاتٍ لّلمؤمنينَ وَفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لقَوْمٍ يُوقِنونَ وَاخْتِلاَفِ اللّيلِ والنَّهارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعدَ مَوْتِها وتَصْريفِ الرِّياحِ آيَاتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ) فإذا رفع فقد عطف (آياتٍ) على الابتداء واختلافا على (في) وذلك عاملان ، ولكنه إذا قصد التكرير رفع أو نصب فقد زال العطف على عاملين ، فالعطف على عاملين خطأ في القياس غير مسموعٍ من العرب ، ولو جاز العطف على عاملين لجاز على ثلاثة وأكثر من ذلك ، ولو كان الذي أجاز العطف على عاملين أي شاهد عليه بلفظ غير مكرر نحو : (إنَّ في الدار زيداً والمسجدَ عمراً) وعمرٌو غيرُ زيدٍ ، لكان ذلك له شاهداً على أنه إنْ حكى مثله حاكٍ ولم يوجد في كلام العرب شائعاً فلا ينبغي أن تقبله وتحمل كتاب الله عز و جل عليه "[1] . فانظر كيف كان مطل الكلام محسنا لقصد التكرار الذي ساعد على دفع العطف على عاملين .

ومنه قول الرضي : " الأخفش لا يمنع، من صور العطف على عاملين، إلا ما كان فيه الفصل بين العاطف والمجرور، لا غير، كما ذكرنا، وسيبويه يمنعه مطلقا، والفراء، كما نسب إليه ابن مالك، يوافق سيبويه ويخالف الأخفش، وهما، أي سيبويه والفراء، يضمران الجار في كل صورة توهم العطف على عاملين وفيها

---

(١) الأصول ٢/ ٧٣، ٧٤ .

مجرور نحو قولهم: ما كل سوداء تمرة، ولا بيضاء شحمة، أي: ولا كل بيضاء، وقوله تعالى: (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة)[1] أي: وللذين، واعتذر ابن السراج لهما في قوله تعالى: (واختلاف الليل والنهار)، إلى قوله (آيات، وآيات)، على القراءتين ، بأن (آيات) أعيدت توكيدا للأولى لما طال الكلام وليس بمعطوف"[2].

" وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهَّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهَّ عَلَى الْكَافِرِينَ "[3] اختلفت النحاة في جواب { لما } و { لَمَّا } الثانية في هذه الآية . فقال أبو العباس المبرد : جوابهما في قولَه : { كَفروا } ، وأعيدت { لما } الثانية لطول الكلام ، ويفيد ذلك تقريراً للذنب ، وتأكيداً له ، وقال الزجاج : { لما } الأولى لا جواب لها للاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه؟

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : فكأنه محذوف ، وقال الفراء : جواب { لما } الأولى في الفاء وما بعدها ، وجواب { لما } الثانية { كفروا }"[4].

وقوله أيضا : " قرأ نافع وابن عامر : « لا يحسبن الذين » بالياء من تحت وفتح الباء ، وكسر نافع السين ، وفتحها ابن عامر « فلا تحسبنهم » بالتاء من فوق، وفتح الباء ، والمفعولان اللذان يقتضيهما قوله « لا يحسبن الذين » محذوفان لدلالة

---

(١) يونس ٢٧.

(٢) الرضي ٢/ ٣٤٧ . .

(٣) البقرة ٨٩.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١٦٠.

ما ذكر بعده .....وحسن تكرار الفعل في قوله « فلا تحسبنهم » لطول الكلام ، وهي عادة العرب ، وذلك تقريب لذهن المخاطب .

و « المفازة » : مفعلة من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة ، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاؤل ، قاله الأصمعي وقيل : لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك ، تقول العرب : فوز الرجل إذا مات ، قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي فقال : أخطأ ، قال لي أبو المكارم : إنما سميت « مفازة » لأن من قطعها فاز ، وقال الأصمعي : سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً ، قال ابن الأعرابي : بل لأنه مستسلم لما أصابه ، وبعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذابا (١)" .

وقال السمين :" ذهب المبردُ إلى أنَّ « كفروا » جوابُ « لَمَّا » الأولى وكُرِّرت الثانيةُ لطولِ الكلام ، ويُفيد ذلك تقريرَ الذنبِ وتأكيدَه ، وهو حسنٌ ، لولا أنَّ الفاءَ تَمْنع من ذَلك . وقال أبو البقاء بعد أن حَكَى وجهاً أولَ : « والثاني : أنَّ » كفروا « جوابُ الأولى والثانية لأنَّ مقتضاهما واحدٌ . وقيل : الثانيةُ تكريرٌ فلم يُحْتَجْ إلى جواب » قلت : « قولُه : » وقيل الثانية تكريرٌ « هو ما حَكَيْتُ عن المبرد ، وهو في الحقيقة ليس مغايراً للوجه الذي ذَكَره قبله من كون » كفروا «جواباً لهما بل هو هو»(٢) .

وقال أبو حيان: " لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨ . .

(٢) الدر المصون ١/ ٢٤٢.

وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(١) قرأ حمزة ، والكسائي، وعاصم : لا تحسبن ، وفلا تحسبنهم بتاء الخطاب، وفتح الباء فيهما خطاباً للرسول، وخرجت هذه القراءة على وجهين : أحدهما ذكره ابن عطية ، وهو أن المفعول الأول هو : الذين يفرحون.

والثاني محذوف لدلالة ما بعده عليه كما قيل آنفاً في المفعولين.

وحسن تكرار الفعل فلا يحسبنهم لطول الكلام ، وهي عادة العرب ، وذلك تقريب لذهن المخاطب "(٢).

والأمثلة على هذا كثيرة أثيرة في كتب أهل العلم من النحاة والمفسرين فكما قيل :حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

تقوية الحكم أو رفع العيب وربط الكلام

من خلال استقراء كلام أهل العلم وتتبع تعليلاتهم لطول العبارة في نصوص العرب تبين لي أن مما يمطل بسببه الكلام وتطول المسافة لأجله ما عبروا به من تقوية الحكم أو ربط الكلام وتطريته وتجديده، أو دفع العيب عن اللسان ونحو ذلك، ومن أمثلة ذلك مايلي:

قال سيبويه : " والجر في هذا أقوى، يعني هذا ضارب زيد وعمرو وعمراً بالنصب. وقد فعل لأنه اسم وإن كان قد جرى مجرى الفعل بعينه. والنصب في الفصل أقوى، إذا قلت: هذا ضارب زيد فيها وعمراً، وكلما طال

---

(١) آل عمران ١٨٨ ، ١٨٩ . .

(٢) البحر ٣/ ٥٠٠ .

الكلام كان أقوى؛ وذلك أنك لا تفصل بين الجار وبين ما يعمل فيه، فكذلك صار هذا أقوى .

وكذلك إن جئت باسم الفاعل الذي تعدى فعله إلى مفعولين وذلك قولك: هذا معطى زيد درهما وعمرو، إذا لم تجره على الدرهم، والنصب على ما نصبت عليه ما قبله. وتقول: هذا معطى زيد وعبد الله. والنصب إذا ذكرت الدرهم أقوى، لأنك " قد " فصلت بينهما "[1] .

وقال أيضا في موضع آخر: " وتقول: ما فيها إلا زيدٌ، وما علمتُ أن فيها إلا زيداً. فإن قلبتَه فجعلتَه يلي " أن ، وما " في لغة أهل الحجاز قبح ولم يَجز؛ لأنهما ليسا بفعل فيُحتمل قلبُهما كما لم يجز فيهما التقديم والتأخير ولم يجز ما أنت إلا ذاهباً، ولكنه لما طال الكلام قويَ واحتُمل ذلك، كأشياء تجوز في الكلام إذا طال وتزداد حُسناً. وسترى ذلك إن شاء الله، ومنها ما قد مضى "[2].

وقال الفراء :" (وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِير)[3]

إذا عَجَّلت العرب باللام فى غير موضعها أعادوها إليه كقولك: إنَّ زيدا لإليك لمحسن، كان موقع اللام فى المحسن، فلمّا أدخلت فى إليك أُعيدت فى المحسن ومثله قول الشاعر:

ولو أنَّ قومى لم يكونوا أعِزّة لَبَعْدُ لقد لاقيتُ لا بدّ مَصْرعَا[4]

---

(١) الكتاب ١/ ٣٦ .

(٢) الكتاب ١/ ١٥٦ .

(٣) هود ١١١ .

(٤) البيت مفرد دون نسبة في سر الصناعة ١/ ٢٩٣ .

أَدخلها فى (بَعد) وليسَ بموضعها، ومثله قول أبى الجرّاح: إنى لبحمد الله لصالح"[1].

وقال ابن عاشور في تفسيره : "{وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}"[2] قوله : " فتطردهم " منصوب في جواب النهي الذي في قوله : (ولا تطرُد الذين يدعون ربَّهم). وإعادة فعل الطرد دون الاقتصار على قوله : (فتكونَ من الظالمين) لإفادة تأكيد ذلك النهي وليبنى عليه قوله :" فتكون من الظالمين " لوقوع طول الفصل بين التفريع والفرع عليه . فحصل بإعادة فعل " فتطردهم " غرضان لفظي ومعنوي . على أنَّه يجوز أن يجعل " فتطردهم " منصوباً في جواب النفي من قوله : (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء)، أي لا تطردهم إجابة لرغبة أعدائهم .

وقوله : (فتكون من الظالمين) عطف على " فتطردهم " متفرّع عليه ، أي فتكون من الظالمين بطردهم ، أي فكونه من الظالمين منتف تبعاً لانتفاء سببه وهو الطرد .

وإنَّما جُعل طردهم ظلماً لأنَّه لما انتفى تكليفه بأن يحاسبهم صار طردهم لأجل إرضاء غيرهم ظلماً لهم . وفيه تعريض بالذين سألوا طردهم لإرضاء كبريائهم بأنَّهم ظالمون مفطورون على الظلم ؛ ويجوز أن يجعل قوله : (فتكون من الظالمين) منصوباً في جواب النهي ، ويجعل قوله " فتطردهم " جيء به على هذا الأسلوب لتجديد ربط الكلام لطول الفصل بين النهي وجوابه بالظرف والحال

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٣٠ .

(٢) الأنعام ٥٢.

والتعليل ؛ فكان قوله : فتطردهم ، كالمقدّمة لقوله : " فتكون من الظالمين " وليس مقصودٌ بالذات للجوابية ؛ فالتقدير : فتكون من الظالمين بطردهم "[1] .

وقال في موضع آخر: "و{يَوْمَئِذٍ} الثاني بدل من {إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ}[2] والمعنى: يوم تدك الأرض دكا إلى آخره يتذكر الإنسان. والعامل في البدل والمبدل منه معا فعل {يتذكر} . وتقديمه للاهتمام مع ما في الإطناب من التشويق ليحصل الإجمال ثم التفصيل مع حسن إعادة ما هو بمعنى {إذا} لزيادة الربط لطول الفصل بالجمل التي أضيف إليها {إذا} "[3] .

وفي البحر : " ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[4]...قال الزمخشري : ودخلت { إن } على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التأكيد ، ونحوه قول جرير :

إنَّ الخليفة إنْ الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم[5]

وظاهر هذا أنه شبه البيت بالآية ، وكذلك قرنه الزجاج بالآية ، ولا يتعين أن يكون البيت كالآية لأن البيت يحتمل أن يكون خبر "إن الخليفة " قوله : به ترجى الخواتيم ، ويكون : إن الله سربله سربال ملك ، جملة اعتراضية بين اسم "

---

(١) التحرير ٧/ ٢٥٢ .

(٢) الفجر ٢١ .

(٣) التحرير ٣٠/ ٢٩٩ .

(٤) الحج ١٧ .

(٥) ديوانه ١/ ٥٧٩ .

إن " وخبرها بخلاف الآية فإنه يتعين قوله: { إن الله يفصل }"[1] وحسن دخول { إن } على الجملة الواقعة خبراً طول الفصل بينهما بالمعاطيف ، والظاهر أن الفصل بينهم يوم القيامة هو بصيرورة المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار ، وناسب الختم بقوله { شهيداً } الفصل بين الفرق "[2] .

والمسافة بين الشيئين قد تفيد رفع العيب ودفع النقد قال السكاكي في مفتاحه :" ومن العيوب الإيطاء وهو إعادة الكلمة التي فيها الروي إعادة بلفظها ومعناها في القصيدة نحو: رجل رجل ، فإنه إيطاء بالاتفاق دون نحو: رجل الرجل، ففي الأصحاب من لا يعده إيطاء لقوة اتصال حرف التعريف بما يدخل فيه ونزول المعرف لذلك منزلة المغاير للمنكر وعيب الإيطاء بتقارب المسافة بين كلمتي الإيطاء أما إذا طالت القصيدة وتباعدت المسافة بين الكلمتين فقلما يعاب ، لاسيما إذا استعملت إحدى كلمتي الإيطاء في فن من المعاني وأخراهما في فن آخر "[3] .

---

(١) يعني : يتعين كونه خبرا . وليس كذلك ، لأن الآية محتملة لوجهين آخرين :
الأول : أن يكون الخبر محذوفاً تقديره : يفترقون يوم القيامة ونحوه ، والمذكور تفسير له كذا ذكره أبو البقاء .
والثاني : أن " إن " الثانية تكرير للأولى على سبيل التوكيد ، وهذا ماش على القاعدة وهو أن الحرف إذا كرر توكيداً أعيد معه ما اتصل به أو ضمير ما اتصل به ، وهذا قد أعيد معه ما اتصل به أولاً ، وهي الجلالة المعظمة فلم يتعين أن يكون قوله: إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ ، خبراً ل " إنَّ " الأولى كما ذكر .
انظر اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ٤١ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٨ .
(٣) مفتاح العلوم ١/ ٢٤٠ .

وقال في روح المعاني: " (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) . "[1]

وقيل المراد: فله نار جهنم وأن تكرير { أن } في قوله سبحانه : { أَنَّهُ } توكيداً قيل : وفيه بحث لأنه لو كان المراد: فله ، و" أن " توكيداً لكان " نار جهنم " مرفوعاً ولم يعمل { أن } فيه ، ولَمَا فُصل بين المؤكد والمؤكد بجملة الشرط ، ولَمَا وقع أجنبي بين فاء الجزاء وما في حيزه . وأجيب بأنه ليس من باب التوكيد اللفظي بل التكرير لبعد العهد ، وهو من باب التطرية ، ومثل ذلك لا يمنع العمل ودخول الفاء ...." [2]

رد الحكـــــــم أو الفتح ببعده

تتعدد الأوجه الإعرابية والأحكام النحوية بناء على آراء النحاة ومذاهبهم، وتتفاوت تلك الأوجه والأحكام قوة وضعفا وحسنا وقبحا وقبولا ورفضا ، وفقا لما تقضي به قواعد اللغة وقوانين الصناعة ،ولكني رأيت بعض النحاة اعترضوا أحيانا دون بعض أوجه الإعراب ، ولم يكن لديهم شيء مما يستندون إليه من مخالفة تلك القواعد المحكمة سوى طول الكلام ،مما جعلهم يحكمون برد وجه ما أو ببعده ، والأمثلة على ذلك يضيق عنها هذا المختصر ، من ذلك :

ورد في البحر:(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ

---

(١) التوبة ٦٣ .

(٢) روح المعاني ٧/ ٢٩٧ .

جُنْدًا)[1] قال الزمخشري : في هذه الآية وجهان أحدهما أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما أي قالوا { أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا } { حتى إذا رأوا ما يوعدون } أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين { إما العذاب } في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم ، وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً ، وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم وإما يوم القيامة وما يناهم من الخزي والنكال فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم { شر مكاناً وأضعف جنداً } لا { خير مقاماً وأحسن نديا } وأن المؤمنين على خلاف صفتهم.

انتهى هذا الوجه وهو في غاية البعد لطول الفصل بين قوله قالوا : { أي الفريقين } وبين الغاية وفيه الفصل بجملتي اعتراض ولا يجيز ذلك أبو علي "[2].

وجاء فيه أيضا عند بيان إعراب (رسولا) من قوله تعالى :" (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ...) .[3]

أحدها : أن يكون منصوباً بإضمار فعل تقديره : ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل .... لما لم يمكن تشريكه مع المنصوبات قبله في العامل الذي هو : يعلمه ، أضمر له فعل ناصب يصح به المعنى ، قاله ابن عطية وغيره .

---

(١) مريم ٧٥ .

(٢) البحر ٨/ ٥٦ .

(٣) آل عمران ٤٩ .

الثاني : أن يكون معطوفاً على : ويعلمه ، فيكون : حالاً ، إذ التقدير : ومعلماً الكتاب ، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله : وجيهاً [١]، قاله الزمخشري ، وثنى به ابن عطية ، وبدأ به وهو مبني على إعراب : ويعلمه وقد بينا ضعف إعراب من يقول : إن : ويعلمه ، معطوف على : وجيهاً ، للفصل المفرط بين المتعاطفين [٢].

الثالث : أن يكون منصوباً على الحال من الضمير المستكن في : ويكلم ، فيكون معطوفاً على قوله : وكهلاً ، أي : ويكلم الناس طفلاً وكهلاً ورسولاً إلى بني إسرائيل ، قاله ابن عطية ، وهو بعيد جداً لطول الفصل بين المتعاطفين " [٣]

ومثله قول السمين الحلبي حول بيان متعلق الكاف ومجرورها من قوله تعالى : "(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) [٤]

قوله تعالى : { كَمَآ أَرْسَلْنَا } : في الكافِ قولان ، أظهرُهما : أنَّها للتشبيه . والثاني : أنها للتعليل ، فعلى القولِ الأولِ تكونُ نعتَ مصدرٍ محذوفٍ . واختَلَفَ الناسُ في متعلَّقِها حينئذٍ على خمسةِ أوجهٍ ، أحدُها : أنها متعلقةٌ بقوله : « ولأتِمَّ » تقديرُه : ولأتَّم نعمتي عليكم إتماماً مثلَ إتمامِ الرسولِ فيكم ، ومتعلَّقُ الإتمامَيْنِ مختلفٌ ، فالأولُ بالثوابِ في الآخرةِ والثاني بإرسالِ الرسولِ في الدنيا ، أو الأولُ

---

(١) من قوله تعالى : (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (٤٥) آل عمران .

(٢) بينهما ثلاث آيات كاملة .

(٣) البحر ٣/ ٢٥١.

(٤) البقرة ١٥١.

بإيجابِ الدعوةِ الأولى لإبراهيم في قوله : { وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }[١] والثاني بإجابةِ الدعوةِ الثانية في قوله : { رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ } [٢] [ورجَّحه مكي لأنَّ سياقَ اللفظِ يَدُلُّ على أنَّ المعنى] : ولأتمَّ نعمتي ببيان مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ كما أَجَبْنا دعوتَه فيكم فَأَرْسلنا إليكم رسولاً منكم .

الثاني : أَنها متعلقةٌ بتهتدون ، تقديرُه : تهْتدون اهتداءً مثلَ إرسالِنا فيكم رسولاً ، ويكون تشبيهُ الهدايةِ بالإرسال في التحقيق والثبوتِ ، أي : اهتداءً متحققاً كتحققِ إرسالنا .

الثالث : – وهو قول أبي مسلم – أنها متعلقةٌ بقولِه : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }[٣] ، أي : جَعْلاً مثلَ إرسالِنا . وهذا بعيدٌ جداً لطولِ الفصلِ المؤذنِ بالانقطاع "[٤].

ومثل ذلك في استبعاد الحكم قول التحرير: " فإن مقصده ما حصل في اليوم، ولكنه جعل الاهتمام بنفس اليوم، لأنه ظرفه. ومنه ما يجيء في القرآن غير مرة، ويكثر مثل هذا في الجمل المفصول بعضها عن بعض بدون عطف لأن الظرف والمجرور يشبهان الروابط، فالجملة المفصولة إذا صدرت بواحد منها أكسبها ذلك نوع ارتباط بما قبلها: كما في هذه الآية، وقوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ

---

(١) من قوله تعالى : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

البقرة ١٢٨ ..

(٢) البقرة ١٢٩ .

(٣) البقرة ١٤٣ .

(٤) الدر المصون ١/ ٣٦٢.

عِمْرَانَ}[1] ونحوهما، وهذا أحسن الوجوه في نظم هذه الآية وأومأ إليه في الكشاف .

وقيل منصوب باذكر. وقيل متعلق بقوله: {المَصِيرُ} وفيه بعد لطول الفصل، وقيل بقوله يحذركم وهو بعيد، لأن التحذير حاصل من وقت نزول الآية، ولا يحسن أن يجعل عامل الظرف في الآية التي قبل هذه لعدم التئام الكلام حق الالتئام"[2] .

وقد يرجح مطل الكلام وجه إعراب على وجه آخر، قال أبو حيان : " { تحبسونهما من بعد الصلاة } الخطاب للمؤمنين لا لما دلّ عليه الخطاب في قوله { إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم } لأن من ضرب في الأرض وأصابه الموت ليس هو الحابس ، { تحبسونهما } صفة لآخران واعترض بين الموصوف والصفة بقوله { إن أنتم ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ } وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرين من غير الملة أو القرابة ـ حسب اختلاف العلماء في ذلك ـ إنما يكون مع ضرورة السفر ، وحلول الموت فيه ، واستغنى عن جواب " إن " لما تقدم من قوله و { آخران من غيركم } انتهى.

وإلى أن { تحبسونهما } صفة ذهب الحوفي وأبو البقاء وهو ظاهر كلام ابن عطية إذ لم يذكر غير قول أبي علي الذي قدّمناه.

وقال الزمخشري (فإن قلت) : ما موضع { تحبسونهما }.

---

(١) آل عمران ٣٥ .

(٢) التحرير ٣/ ٧٣ .

(قلت) : هو استئناف كلام ، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما فكيف إن ارتبنا فقيل : { تحبسونهما } ، وما قاله الزمخشري من الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته "[1] .

ومنه أيضا قوله عند تفسير :" (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [2]

قال الزمخشري : وجهه أنْ يكون مستثنى من قوله : { فسيحوا في الأرض } لأنّ الكلام خطاب للمسلمين ومعناه : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فقولوا لهم : سيحوا ، إلا الذين عاهدتم منهم ، ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم.

والاستثناء بمعنى الاستدراك ، كأنه قيل ـ بعد أنْ أمروا في الناكثين ـ: ولكنّ الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفيّ كالغادر.

وقيل : هو استثناء متصل ، وقبله جملة محذوفة تقديرها : اقتلوا المشركين المعاهدين إلا الذين عاهدتم ، وهذا قول ضعيف جداً ، والأظهر أنْ يكون منقطعاً لطول الفصل بجمل كثيرة بين ما يمكن أن يكون مستثنى منه وبينه "[3].

---

(١) البحر ٥/ ٥٢ .

(٢) التوبة ٤ .

(٣) البحر ٦/ ١٢٧

وإذا كانت المسافة من أجلها يرد الحكم أو يستبعد مجيئه فإنها كذلك إذا قصرت ربما كانت مرجحة لوجه على آخر ومقوية له كما ورد في باب التنازع عندما رجح البصريون إعمال ثاني المتنازعين لقربه والإضمار للأول ، وكتأثير المجاورة في تغيير اللفظ فيما جاء محمولا على ذلك عندهم ، ونحوه مما سوغه القرب .

وبهذا العرض أرجو أن أكون قد وفقت إلى المقصود ، وفتحت بابا للمزيد من البحث والتحرير لمثل هذه المسائل التي لم تحض بعناية الباحثين مع مالها من دور في ترجيح آراء أهل العلم أو قبولها وما يترتب على ذلك من توجيه للمعنى ،حملا على ظاهر المسموع من مذاهب كلام العرب .